

﴿يُبْصِرُونَهُمْ يَوْمَ الْمُجْرِمِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بَنِيهِ ۝
وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ ۝ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ
جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ ۝﴾ [المغارج: 11 - 14]

❁ مُنَاسَبَةُ الْآيَاتِ لِمَا قَبْلَهَا:

لَمَّا كَانَ مِنَ الْوَارِدِ احْتِمَالُ عَدَمِ سُؤَالِ الْحَمِيمِ حَمِيمَهُ لِعَدَمِ رُؤْيَا
بَعْضِهِمْ بَعْضًا لِكثْرَةِ الْجَمْعِ، وَشِدَّةِ الزَّحَامِ، وَتَفَرُّقِ النَّاسِ فِيهِ عَلَى
حَسَبِ مَرَاتِبِ أَعْمَالِهِمْ؛ اسْتَأْنَفَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ الْجَوَابَ عَنْ سُؤَالِ
مُحْتَمَلٍ حَاصِلُهُ: لَعَلَّ ذَلِكَ يُتْرَكُ لِعَدَمِ رُؤْيَتِهِمْ لَهُمْ؟ فَقَالَ تَعَالَى:
﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ أَي: يُبْصِرُهُمْ مُبْصَرًا؛ فَلَا يَخْفَى أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ وَإِنْ
بَعْدَ مَكَانِهِ⁽¹⁾.

تَرْكُ الْحَمِيمِ
سُؤَالَ حَمِيمِهِ
فِي الْآخِرَةِ؛
لِلتَّشَاغُلِ
بَأَهْوَالِهَا لَا
لِغِيَابِهِ عَنْهُ

❁ شَرْحُ الْمُفْرَدَاتِ:

(1) ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾: (بصر) تدور أَكْثَرُ تَصَاريفِهَا عَلَى مَعْنَى
الْعِلْمِ بِالشَّيْءِ⁽²⁾. وَالْبَصْرُ يُقَالُ لِلجَّارِحَةِ النَّاطِرَةِ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى:
﴿كَلِمَاجُ الْبَصْرِ﴾ [النحل: 77]، وَلِلقُوَّةِ الَّتِي فِيهَا، وَيُقَالُ لِقُوَّةِ الْقَلْبِ الْمَدْرِكَةِ:
بَصِيرَةٌ وَبَصَرٌ، نَحْوُ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ
الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [الزمر: 22]، وَقَالَ: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: 17]،
وَجَمْعُ الْبَصْرِ: أَبْصَارٌ، وَجَمْعُ الْبَصِيرَةِ: بَصَائِرٌ، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَمَا
أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ﴾ [الأحقاف: 26]، وَلَا يَكَادُ يُقَالُ لِلجَّارِحَةِ
بَصِيرَةً، وَيُقَالُ مِنَ الْأَوَّلِ: أَبْصَرْتُ، وَمِنَ الثَّانِي: أَبْصَرْتُهُ وَبَصَرْتُهُ
بِهِ، وَقَلَّمَا يُقَالُ بَصَرْتُ فِي الْحَاسَةِ؛ إِذَا لَمْ تُضَاهَهِ رُؤْيَا الْقَلْبِ.

وَيَصِحُّ أَنْ يُسْتَعَارَ الِاسْتَبْصَارُ لِلْإِبْصَارِ، نَحْوُ اسْتِعَارَةِ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (بصر).

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 395 / 20.

الاستجابة للإجابة. وقول الله تعالى: ﴿وَلَا يَسْأَلُ حَيْمٌ حَيْمًا ۝ يُبْصَرُونَهُمْ﴾ أي: يُجْعَلُونَ بُصَرَاءَ بَأْثَارِهِمْ⁽¹⁾.

(2) ﴿يَوَدُّ﴾: الودُّ: محبة الشيء⁽²⁾، وتمني وجوده وحصوله، ويستعمل في كل واحد من المعنيين؛ على أن التمني يتضمن معنى الود؛ لأن التمني هو تشهي حصول ما تودّه، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الزّوم: 21]، وقوله: ﴿سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا ۝﴾ [مريم: 96]؛ إشارة إلى ما أوقع بينهم من الألفة المذكورة في قوله: ﴿لَوْ أَنْفَقْتُ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَفْتُ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ﴾ [الأنفال: 63].

ومن المودة التي تقتضي معنى التمني: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ [آل عمران: 69]، وقال: ﴿رُبَّمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ ۝﴾ [الحجر: 2]، وقال: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِ بِنَيْهِ﴾⁽³⁾. فقوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ أي: يتمنى لو يفتدّر على ذلك، ولا ينفعه حينئذ التمني.

(3) ﴿يَفْتَدِي﴾: (فدى) تدور اشتقاقاتها على أصلين متباينين؛ أحدهما: أن يجعل شيء مكان شيء حمى له، والآخر: شيء من الطعام. فالأول قولك: فديته أذيه، كأنك تحميه بنفسك أو بشيء يعوّض عنه. ومنه: الفدية؛ وهو ما يقي به الإنسان نفسه من مال يبدله في عبادة قصّر فيها⁽⁴⁾. والآخر: الفداء - ممدود -؛ وهو مسطح التمر، ويطلق على جماعة الطعام من الشّعير والتمر ونحوها⁽⁵⁾. وقوله تعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِهِ بِنَيْهِ﴾ أي: يتمنى لو يحمي نفسه بعوض يدفعه هو هؤلاء جميعاً.

(4) ﴿وَصَحْبَتَهُ﴾: (صحب) تدلّ تصريفاتها على مقارنة الشيء ومقاربتة⁽⁶⁾، يقال: أصحب الماء؛ أي: علاه الطحلب. وأديم مصحوب ومصحب: عليه صوفه أو شعره أو وبرّه. وعود مصحوب ومصحب: ترك لحاؤه ولم يقشّر. والأصل في الصحبة: الملازمة، ثم قد

(1) الراغب، المفردات في غريب القرآن: (بصر).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (ود).

(3) الراغب، المفردات: (ود).

(4) الراغب، المفردات: (فدى).

(5) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فدى).

(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (صحب).

تُسْتَعْمَلُ فِي مَجَرَّدِ الْاِقْتِرَانِ. وَمِنَ الْمَلَاظِمَةِ مَدَّةُ الْحَيَاةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [القمان: 15]، وقوله تعالى: ﴿وَصَاحِبَتَيْهِ وَأَخِيهِ﴾ أي: زوجته، وكذا كُلُّ اسْتِعْمَالِهَا فِي (صَاحِبَةٍ). وَالْأَخُوَّةُ رِبَاطٌ قَدْ يَخْلُو مِنَ اللَّصُوقِ⁽¹⁾.

(5) ﴿وَفَصِيلَتِهِ﴾: (فصل) تدلُّ تصريفاتها على تمييز شيءٍ من شيءٍ وإبانته عنه⁽²⁾، وَمِنْهُ: الْمَفْصِلُ؛ وَهُوَ كُلُّ مُلْتَقَى عَظْمَيْنِ مِنَ الْجَسَدِ. وَالْفَصْلُ: مَوْضِعُهُ. وَتَفْصِيلُ الْجَزْرِ: تَعْصِيَّتُهُ. وَالْفَاصِلَةُ: الْخَرْزَةُ الَّتِي تَفْصِلُ بَيْنَ اللَّوْلُوتَيْنِ أَوْ نَحْوَهُمَا فِي النَّظَامِ. وَالْفَصْلُ: تَمْيِزُ الشَّيْءِ عَنْ غَيْرِهِ مَعَ تَمَامٍ أَوْ مَا هُوَ مِنْ بَابِهِ، كَتَمْيِزِ كُلِّ مِنْ عَضْوَيِ الْمَفْصِلِ، وَكُلِّ مِنْ أَعْضَاءِ الْجَزْرِ، وَتَفْصِيلُ الشَّيْءِ: تَبْيِيْنُهُ وَجَعْلُهُ فُصُولًا مَتَمَايِزَةً؛ تَمْيِزُ أَجْزَائِهِ وَتَوْضِيْحُ جُزْئِيَّاتِهِ، وَيُقَالُ: فَصَلَ بَيْنَ الْخَصْمَيْنِ: أَي: حَكَمَ، فَمَيَّزَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْمَبْطُلِ.

وفصيلة الرجل: عشيرته ورهطه الأدنى؛ أقرب آبائه إليه، كالعباس عليه السلام، يقال له: فصيلة النبي صلى الله عليه وآله، والمقصود بالفصيلة: القسم من القبيلة الذي ينتمي إليه الشخص أقرب انتهاء، ولذا وصف القرآن الفصيلة بالإيواء: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾⁽³⁾ أي: قبيلته تُقَرِّبُهُ وَتَحْتَضِنُهُ.

(6) ﴿تُؤْوِيهِ﴾: (أوي) تدلُّ اشتقاقاتها على معنيتين كِلَيْتَيْنِ: أَحَدُهُمَا: التَّجَمُّعُ، وَالْآخَرُ: الْإِشْفَاقُ. وَالْمَأْوَى: مَصْدَرُ أَوَى يَأْوِي أَوْيًّا وَمَأْوًى، تقول: أوى إلى كذا؛ إِذَا انْضَمَّ إِلَيْهِ. وَأَوَاهُ غَيْرُهُ يُؤْوِيهِ إِيْوَءًا. قَالَ اللَّهُ صلى الله عليه وآله: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ﴾ [الكهف: 10]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿سَاءَ أَوَى إِلَى جَبَلٍ﴾ [هود: 43]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿عَاوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ﴾ [يوسف: 69]، وَقَالَ: ﴿وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ﴾ [الأحزاب: 51]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ تَعَالَى: ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ [التجم: 15]، وَقَالَ: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾⁽⁴⁾؛ أَي: عَشِيرَتُهُ الْأَقْرَبِينَ الَّذِينَ يَضُمُّونَهُ فِي النَّسَبِ أَوْ عِنْدَ الشَّدَائِدِ وَيَأْوِي إِلَيْهِمْ⁽⁵⁾.

(1) جبل، للعجم الاشتقافي للوصل: (صحب).

(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (فصل).

(3) جبل، للعجم الاشتقافي للوصل: (فصل).

(4) الراغب، للفردات في غريب القرآن: (أوى).

(5) القَوْجِي، فتح البيان: 314 / 14.

(7) ﴿يُنَجِّيه﴾: (نجى) تدور اشتقاقاتها على الانفصالِ مِنَ الشَّيْءِ⁽¹⁾، وَنَجَوْنَا الوادي - بالفتح -: سَدَاهُ جميعًا مُسْتَقِيمًا وَمُسْتَلْقِيًا، كُلُّ سَدَدٍ نَجْوَةٌ. وَالنَّجْوَةُ وَالنَّجَاةُ: ما ارتفع من الأرض، فلم يَعْلُهُ السَّيْلُ.

وَالنَّجَاءُ: السُّرْعَةُ مِنْ خَطَرٍ؛ أَي: نَفَاذُ بَقْوَةٍ خِلَالَ مَسَافَةٍ وَخُلُوصٍ، وَالْخُلُوصُ مِنَ الشَّيْءِ؛ فَهُوَ خُلُوصٌ بِصُعُوبَةٍ، وَالصَّعُوبَةُ ثِقَلٌ فَهِيَ مِنَ الْكثَافَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿نَجَوْتُ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ۝٢٥﴾ [القصاص: 25]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ﴾ [الأنعام: 64]. وَكُلُّ مَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ هَذَا التَّرْكِيبِ؛ فَهُوَ بِمَعْنَى الْخُلُوصِ مِنْ خَطَرٍ مُحْدِقٍ أَوْ عَذَابٍ أَوْ غَرَقٍ أَوْ كَرْبٍ، وَنَحْوَ ذَلِكَ، مِمَّا عَدَا صِغَتَيِ (نَاجَى) وَ(تَنَاجَى)، وَكُلُّ (نَجَى) وَ(نَجَوَى) فَهِنَّ مِنْ مَعْنَى الْمُسَارَّةِ، وَهِيَ مِنْ خُلُوصِ الْمَتَنَاجِينَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ دُونَ الْآخَرِينَ. أَوْ اخْتِصَاصِ الْمَنَاجَى، وَهُوَ يَعِدُّ اسْتِخْلَاصًا لَهُ مِنْ بَيْنِ الْآخَرِينَ⁽²⁾. وَمَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنَجِّيه﴾ أَي: ثُمَّ يَخْلُصُهُ مِنَ الْعَذَابِ.

❁ الْمَعْنَى الْإِجْمَالِيُّ:

يَرَى كُلُّ حَمِيمٍ حَمِيمَهُ فِي الْآخِرَةِ، وَيُعَرِّفُ بِهِ؛ فَلَا يَهْتَمُّ لِأَمْرِهِ لَشِدَّةِ مَا هُمْ فِيهِ جَمِيعًا مِنْ أَهْوَالٍ، وَحِينَئِذٍ يُوَدُّ الْكَافِرُ الْمُجْرِمَ، وَيَتَمَنَّى أَنْ لَوْ اسْتَطَاعَ اقْتِدَاءَ نَفْسِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِنَيْهِ، وَزَوْجَتِهِ الَّتِي صَاحَبَتْهُ فِي الدُّنْيَا وَخَالَطَتْهُ وَخَالَصَتْهُ، وَبِأَخِيهِ الَّذِي عَاضَدَهُ، وَقَبِيلَتِهِ الَّتِي حَامَتْ عَنْهُ وَزَادَتْ، وَكُلُّ مَنْ كَانَ يَعْرِفُ فِي الدُّنْيَا، بَلْ وَأَنْ يَقْدِمَ فِدَاءً لِنَفْسِهِ الثَّقَلَيْنِ جَمِيعًا، وَكُلُّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ ثَرَوَاتٍ؛ ثُمَّ لَعَلَّ ذَلِكَ - لَوْ اسْتَطَاعَهُ - يُقْبَلُ مِنْهُ، فَيَنْجُو وَيَسْلَمُ مِنْ تِلْكَ الْأَهْوَالِ.

فضاعة عذاب
يوم القيامة
تُهَوِّنُ عَلَى الْجُرْمِ
تَقْدِيمَ كُلِّ غَالٍ
ونفيس فداءً
لنفسه

(1) الرأغب، المفردات: (نحو).

(2) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (نحو).

❁ الإيضاح اللغوي والبلاغي:

عَلَّةُ فَصْلِ قَوْلِهِ: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ:

فُصِّلَ قول الله تعالى: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ عَمَّا قَبْلَهُ؛ لما بينهما من شَبْهِ كمال الاتصال، فالجملة الثانية مستأنفة استئنافاً بيانياً؛ فهي تُجِيبُ عن سؤالٍ سائلٍ متوقعٍ، حاصلُهُ: لماذا لا يسأل حميمٌ حميماً؟ الْجَهْلُ لَهُمُ بهم يومئذٍ أم لأنَّهُم لا يلقونهم في الزَّحامِ؟ أم لأسبابٍ أخرى لا نَعْلَمُها؟ فجاءَ الجوابُ كاشفاً عن أنَّ هَولَ الموقفِ يَطغى على الجميع فيَنشغلُ بِهُمومِهِ، على الرُّغمِ مِنْ أنَّ أهله الأقربين أمامه، يَرَاهُمْ وَيَعْرِفُهُمْ بِتعريفِ الله تعالى إِيَّاهُ؛ فليس إهمالُهُمُ شأنٌ أَحْمَأُهِمُ عدمَ بَصَرِهِمُ بهم حينئذٍ.

ويجوز أن تكون قد فُصِلَت جملة ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾؛ لكونها "صفةً": أي: ﴿حَمِيماً﴾ مبصِّرين معرِّفين إِيَّاهُمْ⁽¹⁾، ولا تُعْطَفُ الصِّفَةُ على الموصوفِ لنزولها منها منزلةً نَفْسِها؛ إذ هي نَفْسُها في المعنى.

دلالة التَّعبيرِ بالتَّبصيرِ في قَوْلِهِ: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾:

التَّبصيرُ في قول الله تعالى: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ يعني التَّعريفَ والمُشاهدةَ: أي: يُعْرِفُونَهُمْ، وَيَرَوْنَهُمْ، فَيُعْرِفُ الحَمِيمُ حَمِيمَهُ حتَّى يَعْرِفَهُ، ومع ذلك لا يسأل عن شأنِهِ؛ لِشُغْلِهِ بِنَفْسِهِ⁽²⁾، فَيُشَاهِدُونَهُمْ⁽³⁾، ولا يَخْفَى مِنْهُمْ أَحَدٌ على أَحَدٍ، وليس في القيامةِ مخلوقٌ إلَّا وهو نُصِبَ عَيْنُ صاحِبِهِ، ولا يتساءلون ولا يُكَلِّمُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ لِاشتغالِ كُلِّ أَحَدٍ مِنْهُمْ بِنَفْسِهِ⁽⁴⁾.

ويحتمل أن يُعْرِفَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً؛ أنَّ هذا أبوك وابنُك وحميمك؛

كُلُّ حَبِيبٍ يَرَى
حَبِيبَهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ وَلَا يُولِيهِ
اهْتِمَامًا؛ لِفُرْطِ
انْشِغَالِهِ بِنَفْسِهِ

في الآخرة لا يَنْفَعُ
المرءُ إلَّا إِيْمَانُهُ
الصَّادِقُ وعَمَلُهُ
الصَّالِحُ

(1) النسفي، مدارك التنزيل وحقائق التأويل: 3/ 537.

(2) الواحدي، التفسير الوسيط: 4/ 352.

(3) الخفاجي، عناية القاضى وكفاية الراضى: 8/ 242.

(4) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.

إِذْ لَا يَعْرِفُهُ إِلَّا بِالتَّعْرِيفِ؛ لِمَا حَلَّ بِهِ مِنْ شِدَّةِ الْهَوْلِ وَالْفَزَعِ⁽¹⁾، وَعَنِ السُّدِّيِّ أَنَّهُمْ يُعَرِّفُونَهُمْ؛ أَمَّا الْمُؤْمِنُ فَبِإِبْيَاضِ وَجْهِهِ، وَأَمَّا الْكَافِرُ فَبِسَوَادِ وَجْهِهِ⁽²⁾.

ووراء التَّعْبِيرِ بِمُفْرَدَةِ التَّبْصِيرِ دَلَالَةٌ عَلَى انْكِشَافِ الْحَقَائِقِ، وَبَصَرِ كُلِّ حَمِيمٍ بِمَكَانَتِهِ الْحَقِيقِيَّةِ مِنْ حَمِيمِهِ، وَأَنَّ عَافِيَةَ الْحَمِيمِيَّةِ صَارَتْ مَزْرِيَّةً بَيْنَهُمْ، وَحِينَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الْمَرْءَ إِلَّا إِيمَانُهُ الصَّادِقُ وَعَمَلُهُ الصَّالِحُ. وَضَمِيرُ الرَّفْعِ (الواو) وَضَمِيرُ النَّصْبِ (الهاء) فِي «يُبْصِرُونَهُمْ» يَعُودَانِ إِلَى «حَمِيمٍ» وَ«حَمِيمًا»؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا فِي مَعْنَى الْجَمْعِ وَإِنْ كَانَ فِي اللَّفْظِ مُفْرَدًا؛ لِأَنَّهُ نَكْرَةٌ تَقِيدُ الْاسْتِغْرَاقَ فِي سِيَاقِ النَّفْيِ، وَالتَّقْدِيرُ: أَنَّهُ لَا يَسْأَلُ الْأَصْدِقَاءُ أَصْدِقَاءَهُمْ؛ لِأَنَّ كُلًّا مِنْ طَرَفَيْ التَّسْأُولِ عَلَى حَالٍ وَاحِدَةٍ مِنَ الْوُجُوهِ وَالِاشْتِغَالِ بِالنَّفْسِ عَنْ غَيْرِهِمْ، فَالْجَمِيعُ فِي هَذَا الْيَوْمِ عَلَى حَدٍّ سَوَاءٍ فِيمَا يُذْهِلُهُمْ مِنْ هُمُومٍ، فَلَا سَائِلَ وَلَا مَسْئُولَ⁽³⁾.

وَلَفَتْ ابْنُ عَاشُورٍ إِلَى لَطِيفَةٍ وَرَاءَ هَذَا التَّبْصِيرِ؛ فَقَالَ: "يُكْشَفُ لَهُمْ عَنْهُمْ لِيَرَوْا مَا هُمْ فِيهِ مِنَ الْعَذَابِ؛ فَيَزِدُّادُوا عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ"⁽⁴⁾. فَمَا أَشَدَّ أَنْ يَرَى الرَّجُلُ أَصْلَ وَجُودِهِ أَوْ فَلَذَّةَ كِبِدِهِ أَوْ حَبِيبَةَ رُوحِهِ يُعَذِّبُ؛ وَلَا يَمْلِكُ لَهُ نُصْرَةٌ!.

بَيَانُ مَرْجِعِ الضَّمِيرِينَ فِي قَوْلِهِ: «يُبْصِرُونَهُمْ»:

تَعَدَّدَتْ أَقْوَالُ الْعُلَمَاءِ فِي الْمُبْصَّرِينَ وَالْمُبْصِّرِينَ بِهِمْ فِي قَوْلِهِ: «يُبْصِرُونَهُمْ» إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْوَالٍ؛ فَمِنْهَا: أَنَّ الْأَقْرَبَاءَ يُعَرِّفُونَ أَقْرَبَاءَهُمْ، وَيُعَرِّفُ كُلُّ إِنْسَانٍ قَرِيبَهُ، فَذَلِكَ تَبْصِيرُ اللَّهِ تَعَالَى إِيَّاهُمْ؛ يُعَرِّفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ، ثُمَّ يَفِرُّ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ،

يَتَضَاعَفُ حُزْنُ
الْكَافِرِ حِينَ
يَرَى حَبِيبَهُ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ يُعَذَّبُ
وَلَا يَمْلِكُ لَهُ
نُصْرَةٌ

ثَرَاءُ الْمَعَانِي
وَوُفْرَتُهَا بِتَعَدُّدِ
مَرْجِعِ الضَّمَائِرِ

(1) للآتريدي، تأويلات أهل السنة: 201/10.

(2) الطيبي، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الرب: 14/16.

(3) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1161/15.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 160/29.

كما قال الله سبحانه: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ [عبس: 37]، وذكر الطبري أن هذا أولى الأقوال بالصحة. ومنها: أن المؤمنين يُبْصَرُونَ الكافرين، أو أن الكفار يُبْصَرُونَ الذين أضلّوهم في الدنيا في النار⁽¹⁾، أو يبصر المظلوم ظالمه، والمقتول قاتله⁽²⁾.
 وذهب بعض أهل العلم إلى أن قوله تعالى: ﴿يُبْصَرُونَهُمْ﴾ يرجع إلى الملائكة؛ أي: يُعرّفون أحوال الناس لا يخفون عليهم⁽³⁾، أو يكون معناه: أن يُبْصَرُوا ما سبقَ منهم من الذنوب والجرائم فيعرفونها، وتصير لهم حاضرة⁽⁴⁾. وهذا القول فيه بُعد؛ لأن ضمير (هم) في قوله: ﴿يُبْصَرُونَهُمْ﴾ للعقلاء، وما تقدّم منهم من الذنوب والإجرام ليس كذلك.

دلالة الفعل المضارع في قوله: ﴿يُبْصَرُونَهُمْ﴾:

في التعبير بالفعل المضارع ﴿يُبْصَرُونَهُمْ﴾ استحضار لتلك الأحداث، فتقيمها حيّة في تصوّر المتلقّي؛ فتمور بتلك الصورة الأليمة نفسه، وينفعل لها عقله، وذلك من شأنه مراجعة النفس ومناقشة العقل في قضية الإيمان، والأخذ بهما إلى سلوك سبيل النجاة، فينتهي الكافر عن الاستهزاء بعذاب الله تعالى، ويسارع إلى اعتناق دينه الحق، والانضمام إلى ركب الإيمان مع الأبرار الأطهار.

دلالة إسناد الفعل (يُبْصَر) إلى مفعوله:

في إسناد فعل التبصير لغير فاعله، وبناءه إلى ضمير المفعول الأول في قول الله تعالى: ﴿يُبْصَرُونَهُمْ﴾ إشارة إلى أن تلك التبصرة تكون حينئذ ذاتية المنبّع، أصيلة القناعة، لا تحتاج إلى جهد للتصديق بها بخلافها في الدنيا.

استحضار
مشاهد الآخرة
الأليمة في تصوّر
الإنسان يهزّه
من الأعماق

الكافر في الآخرة
لا يحتاج إلى
إقناع ليصدق،
بخلافه في الدنيا

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 257 / 23.

(2) الماوردي، النكت والعيون: 92 / 6.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 347 / 5.

(4) الماتريدي، تأويلات أهل السنة: 202 / 10.

وفي الفعل ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ ما ليس في الفعل (يُبْصِرُونَهُمْ)؛ وذلك لأنَّ ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ يفيد أنَّ أهل الموقف - لما هم فيه من بلاء - لا يكادون يُبْصِرُونَ شيئاً، ولكنَّ كأنَّ قوَّةَ خارجة عنهم تحملهم حملاً على أن يفتحوا أعينَهُمْ على هذا المكروه الذي يُحيط بهم، ويهجم عليهم، وأنَّ قوله: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ يفيد أنَّ المبصرين والمبصرين بهم على حدٍّ سواء، فكلُّ منهم يُبْصِرُ وَيُبْصَرُ، في حالٍ من الفزع والهلع، لا تدع لأيِّ سبيلاً إلى الاختيار فيما ينظرُ إليه⁽¹⁾.

لطيفة جمع ضميري الحميمين في قوله: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾:

وجمَّع ضميري الحميمين في قوله: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ ناظرٌ إلى عمومهما؛ لأنَّ المقصود ليس صديقين مَخْصُوصَيْن، وإنما المقصودُ كلُّ صديقٍ مع صديقه⁽²⁾؛ وأخذ ذلك العمومُ من أنَّهما نكرتان في سياق النفي⁽³⁾؛ فيعمَّان كلَّ حميمين.

سر حذف الجارِّ المُعدَّى به الفعل في قوله: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾:

الفعل في قول الله تعالى: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ مضارعٌ بَصَرَهُ بالأمر؛ إذا جعله مُبْصِراً له؛ أي: ناظرًا، فأصله: يُبْصِرُونَ بهم، فوقع فيه حذفُ الجارِّ وتعدية الفعل⁽⁴⁾ بنفسه. ومن لطائف ذلك الحذفِ الإيحاءُ بقوة بصرهم بهم، فيحكي حذفُ الجارِّ (الباء) مدى القُربِ المكانيِّ بين كلِّ حميمين يومئذٍ، حتَّى لكانَّهما مُلتَصِقانِ بلا فاصلٍ مادِّيٍّ يحولُ بينهما، ومع ذلك لا يتكلمان، ولا يَهْمَّانِ بالتَّعاونِ على الخلاصِ ممَّا هُما فيه؛ ممَّا يدلُّ على هَوْلِ المَوْقفِ وشِدَّةِ المعاناة.

غرض الخبر في قوله: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾:

في الإخبار بتبصير كلِّ حميمٍ بِحَمِيمِهِ في قوله: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾ "بيانٌ

كلُّ حميمٍ في
الأخرة يرى
حميمه، ولا
يؤليه عناية
لشدة الموقف

كلُّ حميمٍ قريبٌ
من حميمه يوم
القيامة، ولا
يتكلمان لهؤل
الموقف

شدة اندهاشهم
مما نزل بهم من
هول الموقف

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1161 / 15.

(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 96 / 15.

(3) الشوكاني، فتح القدير: 347 / 5.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 160 / 29.

للحال التي يكون عليها الناس يوم القيامة، وأن كل إنسان مشغول بنفسه، لا يسأل عن أحد، ولا يسأل عنه أحد، إن كان من الناجين مضي إلى مرفأ النجاة، ناجيا بنفسه، دون أن يلتفت إلى وراء، أو عن يمين أو شمال، وحسبه أنه نجا. وإن كان من الهالكين؛ فحسبه ما يعاني من شدة وبلاء: ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ (عبس: 37) (1).

كذلك في هذا الخبر بيان أنه "ما يمنعهم من المساءلة أن بعضهم لا يبصر بعضاً، وإنما يمنعهم التشاغل" (2)؛ ف"المانع من هذا السؤال هو الاندهاش مما نزل، لا احتجاب بعضهم من بعض" (3).

علة فصل قوله: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ﴾ عما قبله:

فصل قول الله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بِنَبِيِّهِ﴾ عن قوله: ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾؛ لأن الثانية المفصلة "حال من ضميري الرفع والنصب في جملة ﴿يُبْصِرُونَهُمْ﴾؛ أي: أنه يبصر بعضهم بعضاً، ويكشف بعضهم حال بعض، في حال يود فيها المجرم لو يفتدي من عذاب هذا اليوم بِنبيه... (4)، والأصل في الحال أن لا تعطف؛ لأنها بمنزلة الصفة من الموصوف، أو الخبر من المبتدأ.

أو فصل قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي﴾؛ لكونه استئنافاً بيانياً، فبين الجملتين شبه كمال الاتصال؛ إذ إنه "ما تناهى الإخبار بعظمة ذلك اليوم إلى حد لا تحتمله القلوب؛ ذكر نتيجة ذلك، فقال مستأنفاً: ﴿يَوَدُّ﴾" (5).

دلالة التعبير بالود، ونكتة صوغه مضارعا في الفعل ﴿يَوَدُّ﴾:

﴿يَوَدُّ﴾ في قوله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي﴾ أي: يجب

بيان نتيجة
عظمة يوم
القيامة

عظم انشغال
كل مجرم
بنفسه يوم
القيامة

(1) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1161 / 15.

(2) الزمخشري، الكشاف: 609 / 4.

(3) القاسمي، محاسن التأويل: 318 / 9.

(4) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1162 / 15.

(5) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 1162 / 15.

أَوْ يَتَمَنَّيْ؛ إِذْ يُقَالُ: وَدَّ الْأَمْرَ؛ أَي: أَحَبَّهُ⁽¹⁾، فالمعنى هنا أَنَّ الْكَافِرَ "يَتَمَنَّيْ أَنَّهُ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِيَّاهُ ذَلِكَ الْيَوْمَ بِنَيْهِ، وَصَاحِبَتِهِ - وهي زوجته -، وَأَخِيهِ، وَفَصِيلَتِهِ؛ وَهُمْ عَشِيرَتُهُ"⁽²⁾، وفي ذلك بَيَانٌ "أَنَّ اسْتِغْلَالَ كُلِّ مُجْرِمٍ بِنَفْسِهِ بَلَغَ إِلَى حَيْثُ يَتَمَنَّيْ أَنْ يَفْتَدِيَ بِأَقْرَبِ النَّاسِ إِلَيْهِ وَأَعْلَقَهُمْ بِقَلْبِهِ، فَضْلًا أَنْ يَهْتَمَّ بِحَالِهِ وَيَسْأَلَ عَنْهَا"⁽³⁾.

وهذا البيان المرعب يُقَدِّمُ لَهُ هُنَا فِي الدُّنْيَا نَصْحًا شَفِيقًا رَفِيقًا؛ لَعَلَّهُ يَتَدَارَكُ نَفْسَهُ فَيَكْفِيهَا عَنِ الْكُفْرِ، وَيَأْخُذُ بِيَدِهَا إِلَى الْإِيمَانِ.

ويؤدُّ ذلك "إِذَا بِخَاطِرٍ يَخْطُرُ فِي نَفْسِهِ عِنْدَ رُؤْيَا الْعَذَابِ، وَإِذَا بِكَلَامٍ يَصْدُرُ مِنْهُ نَظِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَلَيْتَنِي كُنْتُ تُرَبًّا ۖ﴾⁽⁴⁾ [النبا: 40] وهذا هو الظَّاهِرُ، أَي يَصْرُخُ الْكَافِرُ يَوْمَئِذٍ فَيَقُولُ: أَفْتَدِي مِنَ الْعَذَابِ بِنَبِيِّ وَصَاحِبَتِي وَفَصِيلَتِي، فَيَكُونُ ذَلِكَ فَضِيحَةً لَهُ يَوْمَئِذٍ بَيْنَ أَهْلِهِ"⁽⁴⁾.

معنى (أَل) فِي «الْمُجْرِمِ»:

و(أَل) فِي «الْمُجْرِمِ» لِبَيَانِ الْجِنْسِ الْمُسْتَعْرِقِ كُلِّ مُجْرِمٍ، "سَوَاءً أَكَانَ كَافِرًا أَوْ مُسْلِمًا عَاصِيًا عَلِمَ أَنَّهُ يُعَذَّبُ بِعَصْيَانِهِ، وَقُيِّدَ بِهِ لِأَنَّ الْمُسْلِمَ الطَّائِعَ يُشْفَعُ فِيمَنْ أُذِنَ لَهُ فِيهِ، وَلَا يَهْمُهُ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ"⁽⁵⁾، فَالْكَافِرُ هُوَ الْأَصْلُ، وَقَدْ يَدْخُلُ فِيهِ الْمُسْلِمُ الْعَاصِي تَبَعًا.

والمعنى: أَنَّ كُلَّ مُجْرِمٍ يَوْمَئِذٍ تَبْلُغُ مِنْهُ النَّدَامَةُ، وَيَبْلُغُ بِهِ الْعَذَابُ حَالًا عَجِيبَةً، لَيْسَ الْعَجَبُ فِيهَا مِنْ أَنَّهُ يَقْبَلُ أَوْ يُوَافِقُ عَلَى الْإِفْتِدَاءِ بِأَهْلِهِ الْأَدْنِيِّينَ، بَلْ أَنَّ يَتَمَنَّيْ أَنْ لَوْ اسْتَطَاعَ ذَلِكَ، وَيَتَمَلَّكَ الْحُزْنَ وَالنَّدَمُ عَلَى قَوَاتِهِ، وَذَلِكَ كُنَايَةٌ عَنِ قَسْوَةِ الْعَذَابِ يَوْمَئِذٍ وَفُظَاعَتِهِ.

(1) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (و د د).

(2) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 606 / 23.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 31 / 9.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 160 / 29.

(5) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 395 / 20.

الكفر إجرامٌ
كبيرٌ مكتملةٌ
خصائصةٌ

وتوحي (أل) في ﴿الْمُجْرِمُ﴾ أيضاً بَفْظَاعَةِ الإِجْرَامِ؛ فَيَتَقَرَّرُ بذلك ذُلُّهُ، وَذَهَابُ عُنْوِهِ وَظُلْمِهِ، وَفَقْدَانُهُ مَقَوِّمَاتِهِ، وَانْقِلَابُ حَالِهِ؛ إِلَى حَدٍّ يَتَمَنَّى فِيهِ أَنْ لَوْ يَتِمَكَّنْ مِنْ افْتِدَاءِ نَفْسِهِ بِأَبْنَائِهِ وَزَوْجِهِ وَأَهْلِهِ وَعَشِيرَتِهِ أَجْمَعِينَ.

و﴿الْمُجْرِمُ﴾ في هذه الآية الكافر؛ بدليل شدة الوعيد وذكر ﴿لَقُلِّي﴾، وقد يدخل مجرم المعاصي فيما ذكر من الافتداء تبعاً⁽¹⁾.

دلالة التعبير بـ ﴿الْمُجْرِمُ﴾ دون (الكافر)، ودلالة صوغه اسم فاعل:

في إثارة التعبير بالإِجْرَامِ دونَ الْكُفْرِ إِيحَاءٌ بِأَنَّ الْكُفْرَ إِجْرَامٌ فِي حَقِّ النَّفْسِ، كَمَا هُوَ إِجْرَامٌ فِي حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّ الْكُفْرَ أَعْظَمُ إِجْرَامًا مِنْ كُلِّ جُرْمٍ، وَقَدْ قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: 48]؛ فَدَلَّ عَلَى أَنَّ الْكُفْرَ أَعْظَمُ صَوَرِ الإِجْرَامِ، وَأَنَّ الْكُفَّارَ جَمِيعًا مُجْرَمُونَ.

كذلك يُوْحِي إِثَارُ التَّعْبِيرِ بِالْإِجْرَامِ بِأَنَّ الْكُفْرَ يُجْرَى عَلَى ارْتِكَابِ صَوَرِ الإِجْرَامِ كُلِّهَا، فَلَا يَتَوَرَّعُ الْكَافِرُ مِمَّا يَتَوَرَّعُ مِنْهُ الْمُؤْمِنُ، وَأَنَّ الْإِيمَانَ يَمْنَعُ مِنْ أَنْوَاعِ الإِجْرَامِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْسُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: 63].

معنى ﴿لَوْ﴾ في قوله: ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾:

﴿لَوْ﴾ في قول الله تعالى: ﴿يَوَدُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِبَنِيهِ﴾ "مصدرية، فما بعدها في حُكْمِ المفعول لـ ﴿يَوَدُّ﴾؛ أي: يودُّ الافتداءَ مِنَ الْعَذَابِ بِبَنِيهِ ... إِلَى آخِرِهِ"⁽²⁾، "فلا يكون لها جوابٌ، وَيَنْسَبُكُ مِنْهَا وَمِمَّا بَعْدَهَا مَصْدَرٌ يَقَعُ مَفْعُولًا لـ ﴿يَوَدُّ﴾، وَالتَّقْدِيرُ: يَوَدُّ افْتِدَاءَهُ بِبَنِيهِ ... إلخ"⁽³⁾.

الكفرُ إجرامٌ في
حقِّ النَّفْسِ وفي
حقِّ الله تعالى،
وهو أَعْظَمُ صَوَرِ
الإِجْرَامِ

أماي الكافر يومَ
القيامة لا تُعدو
حدودُ التَّمَنِّي
النَّادِمِ

(1) ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: 367/5.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 161/29.

(3) الألوسي، روح المعاني: 67/15.

وهي تَقْطَعُ باستحالةِ افتداءِ الكافرِ نفسه أصلاً، وتدُلُّ على أنَّ تحقيقَ هذه الودادةِ مجردُ تَمَنٍّ⁽¹⁾.

لطيفةُ إِيثارِ التَّعبيرِ بالمَصْدَرِ الْمُؤَوَّلِ ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ على الصَّريحِ:

أَوَثِرَ التَّعبيرِ بِالْمَصْدَرِ الْمُؤَوَّلِ ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ على الصَّريحِ، فلم يَرِدِ النَّظْمُ القرآنيُّ: يودُ الْمُجْرِمُ الافتداءَ يومئذٍ بِنِيبِهِ... إلى آخره؛ وفي ذلك إتاحةٌ للتَّصريحِ بأداةِ التَّمَنِّيِ المُحيلةِ ﴿لَوْ﴾، وعطاءُ المُضارعةِ في ﴿يَفْتَدِي﴾ المفيدةُ تجددَ تلك الأُمنيةِ عندَ الْمُجْرِمِ، واستمرارُ تعلقه بما لا يكون؛ فِيتَرَتَّبَ عليها تجددُ أسبابِ العذابِ النَّفْسِيِّ المُذِلِّ علاوةً على العذابِ الحَسِّيِّ المؤلِمِ.

دلالةُ التَّعبيرِ بِالْإِفْتِدَاءِ، ولطيفةُ صَوْغِهِ مُضَارِعًا في الفعلِ ﴿يَفْتَدِي﴾:

في التَّعبيرِ بِالْإِفْتِدَاءِ في قوله: ﴿لَوْ يَفْتَدِي﴾ إشارةٌ إلى أَنَّ إِجْرَامَ الْمُجْرِمِ أَفْقَدَهُ المعاني الإنسانيةَ - بل والمعاني الحيوانيةَ - النَّبيلةَ؛ إذ بلغَ به الإِجْرَامُ أَنْ يَتَمَنَّى لو استطاعَ تقديمَ مُهَجَّةِ نفسه وفلذةِ كبده؛ وهم بنوهُ، بل ويبدأُ بهم تضيُّطاً فيهم استِسْقَاطاً للعذابِ استِنْقَازاً لنفسِه؛ خِسَّةً وانحطاطاً، أو ذهولاً عن وجهِ الصَّوابِ في درجاتِ الافتداءِ؛ لذلك تُعَدُّ هذه الحالُ أقوى كنايةً عَن شِدَّةِ هولِ ما يَلْقَاهُ يومئذٍ، والعياذُ بالله من حالِ أَهْلِ الكُفْرِ والإِجْرَامِ.

معنى ﴿مِنْ﴾ في قوله: ﴿مِنْ عَذَابٍ﴾:

﴿مِنْ﴾ في قوله تعالى: ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِئِذٍ﴾ حرفُ ابتداءٍ مجازيٌّ، وكأنَّه يَنْطَلِقُ في سبيلِ استِنْقَازِ نفسه مِنَ العذابِ من هُنَالِكَ؛ حيثُ يُقَدِّمُ بِنِيبِهِ فِدْيَةً لِنَفْسِهِ.

وتَعْدِيَّةُ ﴿يَفْتَدِي﴾ بـ ﴿مِنْ﴾ يُضْمَنُهُ معنى الفعلِ (يتخلَّص) ⁽²⁾ و(ينجو)، فالتَّعْدِيَّةُ بـ ﴿مِنْ﴾ تَحَقُّقُ الإِيجَازِ في العبارةِ والغزارةِ في الدَّلالةِ.

تَتَرَاكُمُ عَلَى
الْكَافِرِ يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَسْبَابُ
الْعَذَابِ الْحَسِّيِّ
وَالْمَعْنَوِيِّ

تَمَنَّى الْكَافِرِ
الْإِفْتِدَاءَ
بِأَهْلِيهِ خِسَّةً
وَانْحِطَاطاً، أَوْ
ذَهُولاً عَنْ وَجْهِ
الصَّوَابِ فِي
دَرَجَاتِ الْإِفْتِدَاءِ

إِيجَازُ الْعِبَارَةِ
وَوَفَرَةُ الدَّلَالَةِ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 396/20.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 161/29.

دلالة التعبير بـ ﴿عَذَابٍ﴾:

العذاب: الإيجاع الشديد، وأصل التعذيب: إكثار الضرب بعذبة السوط؛ أي: طرفها، وقال بعض أهل اللغة: التعذيب هو الضرب⁽¹⁾؛ فتمنى المجرم أن ﴿لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمِيذٍ﴾ تمنى التخلص من الإيجاع المتنوع، ضربًا بمقامع من حديد، أو حرقًا بلظى الجحيم، أو غير ذلك.

عذاب المجرم
يوم القيامة
متنوعة أصنافه

لطيفة الإضافة، وبيان إيجاز الحذف في ﴿يَوْمِيذٍ﴾:

التنوين في ﴿يَوْمِيذٍ﴾ عوض عن جملة، وهي تعود إلى قوله قبل: ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾، فيكون في قوله: ﴿يَوْمِيذٍ﴾ إيجاز حذف؛ حيث ضغطت الجملتين في التنوين؛ تعجيلًا إلى مكمّن الكناية عن هول ذلك اليوم بافتداء المجرم ببنيه... إلخ.

إيجاز العبارة
تعجيلًا للفائدة
المقصودة

و(يومئذٍ) ظرف مضاف إلى آخر؛ لإرادة التخصيص؛ "وهو يوم تكون السماء كالمهل؛ فإن كان قوله: يوم تكون السماء متعلقًا بـ ﴿يَوْمَ﴾؛ فقلوه: ﴿يَوْمِيذٍ﴾ تأكيد لـ ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾، وإن كان متعلقًا بقوله: ﴿تَعْرُجُ الْمَلَكُوتُ﴾؛ فقلوه: ﴿يَوْمِيذٍ﴾ إفادة لكون ذلك اليوم هو يوم يودّ المجرم لو يفتدي من العذاب بمن ذكر بعده⁽²⁾.

معنى (الباء) في القيد ﴿بِبَنِيهِ﴾:

(الباء) في القيد ﴿بِبَنِيهِ﴾ باء العوض؛ حيث يتمنى المجرم يومئذٍ أن لو استطاع أن يعوّض افتدائه بعوض غير متوقع وهو بنوه وصاحبته وأخوه وفصيلته، ومن في الأرض كلّهم. والباء بعد مادة الفداء تدخل على العوض المبذول⁽³⁾.

تقديم الأعزاء
بقصد الفداء

(1) الراغب، للفردات في غريب القرآن: (عذب)، ص: 455.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 160 / 29.

(3) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 161 / 29.

بلغة الكناية في افتداء المجرم ببنيه ومَن ذُكر معه:

فضاعة ما
يُقاسيه الكافر
من أصناف
العذاب

فِي تَمَنِّيِ الْمُجْرِمِ التَّمَكُّنُ مِنْ افْتِدَاءِ نَفْسِهِ مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بِبَنِيهِ
وَمَنْ دُونَهُمْ؛ أَيْ كُنَايَةً عَنِ فُضَاعَةِ مَا يُعَالِجُهُ الْكَافِرُ يَوْمئِذٍ مِنْ صُنُوفِ
الْعَذَابِ وَأَهْوَالِهِ، وَهُوَ كُنَايَةٌ عَنِ هَوْلِ الْمَوْقِفِ وَقَسْوَةِ الْعَذَابِ؛ إِذْ لَا
أَعْلَى عِنْدَ الْإِنْسَانِ وَلَا أَعَزَّ عَلَيْهِ مِنْ بَنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ.

دلالة الترتيب:

أحوال الآخرة
لا تُقاس على
أحوال الدنيا

رُتِبَتِ الْمَجْروراتُ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿بَنِيهِ ۝ وَصَلَحَتِهِ وَأَخِيهِ ۝
۝ وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ ۝ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ مِنْ بَابِ التَّدْلِي مِنَ
الْأَعْلَى الْأَعْلَى إِلَى الْأَدْنَى؛ بِحَسَبِ طَبَائِعِ الصَّلَاتِ الرُّوحِيَّةِ، فَالْأَبْنَاءُ
أَعَزُّ، وَبِهِمْ يُبْدَأُ؛ إِذِ النَّفْسُ أَعَزُّ مِنْهُمْ، ثُمَّ الصَّاحِبَةُ، ثُمَّ الْأَخُ، وَهَكَذَا
حَتَّى تُفْقَدَ الصَّلَةُ بِالنَّسْبَةِ لـ (مَنْ فِي الْأَرْضِ) عَمُومًا.

و"بَدَأَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ بِذِكْرِ الْبَنِينَ، ثُمَّ الصَّاحِبَةِ، ثُمَّ الْأَخِ، إِعْلَامًا
مِنْهُ عِبَادَهُ أَنَّ الْكَافِرَ مِنْ عَظِيمٍ مَا يَنْزِلُ بِهِ يَوْمئِذٍ مِنَ الْبَلَاءِ يَفْتَدِي
نَفْسَهُ - لَوْ وَجَدَ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا - بِأَحَبِّ النَّاسِ إِلَيْهِ كَانَ فِي الدُّنْيَا،
وَأَقْرَبِهِمْ إِلَيْهِ نَسَبًا" (1).

وَلَعَبِدُ الْكَرِيمِ الْخَطِيبِ مَقَالَ بَارِعٌ تَحْتَ تَفْسِيرِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ
بِعَنَوَانٍ: (مِنْ الْإِعْجَازِ النَّفْسِيِّ فِي الْقُرْآنِ) (2)؛ حَاصِلُ مَا قَرَّرَهُ:
أَنَّهُ قَدْ يَبْدُو غَرِيبًا فِي ظَاهِرِ الْأَمْرِ أَنْ يُقَدِّمَ الْإِنْسَانُ أَوَّلَ مَا يُقَدِّمُ
لِلْفِدَاءِ وَالتَّضْحِيَةِ أَعَزَّ شَيْءٍ لَدَيْهِ وَهُمْ أَبْنَاؤُهُ، وَقَدْ كَانَ الْمَتَوَقَّعُ أَنْ
يَجْعَلَهُمْ آخِرَ سَهْمٍ يَرْمِي بِهِ فِي وَجْهِ هَذَا الْهَلَاكِ الَّذِي يَحْتَوِيهِ؛ وَهَذَا
الْحِسَابُ إِنَّمَا يَجْرِي عَلَى هَذَا الْوَجْهِ حِينَ تَكُونُ الْأُمُورُ عَلَى مَا أَلِفَ
النَّاسُ، وَحِينَ يَكُونُ فِي الْأَمْرِ شَيْءٌ مِنَ السَّعَةِ، وَلَوْ كَانَ بِمِقْدَارِ سَمِّ
الْخِيَاطِ، أَمَّا وَالْعَذَابُ هُوَ عَذَابُ جَهَنَّمَ؛ فَإِنَّ الْمَعَايِيرَ تَخْتَلُّ وَالْمَوَازِينَ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23 / 259.

(2) الخطيب، التفسير القرآني للقرآن: 15 / 1162 ملخصًا.

تضطرب. فإنَّ أقربَ شيءٍ للإنسان في هذا الموقفِ هو درعه التي يتقي بها لَفْحَ العذاب، ولو كان هذا الشَّيءُ عضواً من أعضائه! ولكن انظر حين يكون في الأمر شيءٌ من السَّعة، وحين يكون الإنسانُ خارجَ دائرةِ العذاب؛ لَمْ يَقَعْ فِيهِ بَعْدُ، وَلَمْ تُغْلَقْ عَلَيْهِ أَبْوابُ جَهَنَّمَ. إِنَّهُ هُنَا يَمْلِكُ شَيْئاً مِنَ الاختيار؛ ولهذا فَإِنَّهُ فِي ابتداءٍ مُنْطَلَقِهِ مِنْ وَجهِ الْخَطَرِ يَتَخَفَّفُ مِنَ الْمُهِمِّ فَأَلْهَمَ، وَتَخَلَّى عَنِ الْعَزِيزِ فَأَلْعَزَّ. إِنَّهُ لَا يُقَدِّمُ فِدِيَةً، وَلَكِنَّهُ يَحِلُّ نَفْسَهُ مِنَ الرِّوَابِطِ الَّتِي تَرَبِّطُهُ بِالْوَلَدِ، وَالصَّاحِبَةِ، وَالْأَبِ وَالْأُمِّ، وَالْأَخِ؛ تِلْكَ الرِّوَابِطُ الَّتِي تَجْعَلُ مِنْهُ وَمِنْ هَؤُلَاءِ الْأَقْرَبِينَ كَيْاناً واحداً أَشْبَهَ بِالْجَسَدِ وَأَعْضَائِهِ: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ ۖ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ ۖ وَصَلْبَتِيهِ وَبَنِيهِ ۖ لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ ۖ﴾ [عبس: 34 - 37].

فهنا حركةٌ فِرَارٍ مِنْ خَطَرٍ دَاهِمٍ، وَهنا لَا يَلْتَفِتُ الْإِنْسَانُ إِلَّا إِلَى نَفْسِهِ لِيَنْجُو بِهَا، فَإِنْ نَارَغَتْهُ نَفْسُهُ إِلَى حَمَلِ شَيْءٍ مَعَهُ؛ كَانَ نَظَرُهُ إِلَى أَعَزِّ شَيْءٍ عِنْدَهُ، فَإِنْ وَجَدَ فُرْصَةَ النِّجَاةِ ضَيْقَةً؛ تَخَفَّفَ مِمَّا حَمَلَ، وَرَمَى بِالْعَزِيزِ دُونَ الْأَعَزِّ. ثُمَّ إِذَا ضَاقتِ الدَّائِرَةُ بِحَيْثُ لَا تَتَّسِعُ إِلَّا لِنَفْسِهِ؛ رَمَى بِكُلِّ شَيْءٍ، وَطَلَبَ السَّلَامَةَ لِنَفْسِهِ، وَالْفِرَارَ بِجَلَدِهِ.

إِنَّ هَذِهِ الدَّقَّةَ الْبَالِغَةَ غَايَةَ الْإِحْكَامِ فِي تَصْوِيرِ الْحَقَائِقِ وَانْتِزَاعِهَا مِنْ أَغْوَارِ النَّفْسِ وَمَسَارِبِ الْفِكْرِ لَا تَكُونُ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَلَوْ ذَهَبَ كَاتِبٌ أَوْ شَاعِرٌ يُصَوِّرُ هَذِهِ الْأَحْوَالَ؛ لَمَا امْكُنَ أَنْ يُقَارِبَ هَذَا التَّصْوِيرَ الْقُرْآنِيَّ، وَلَا أَنْ يَقَعَ فِي ضَلَالَةٍ.

نَكْتَةُ إِثَارِ التَّعْبِيرِ بِالْبَنِينَ عَلَى الْأَوْلَادِ، وَلَطِيفَةُ جَمْعِهِ وَإِضَافَتِهِ إِلَى ضَمِيرِهِ:

أَثَرُ النَّظْمِ الْكَرِيمِ التَّعْبِيرِ بِالْبَنِينَ دُونَ الْأَوْلَادِ؛ لِأَنَّ الْإِبْنَ يُفِيدُ الْإِخْتِصَاصَ وَمُدَاوِمَةَ الصُّحْبَةِ، وَالْإِبْنَ فِي كُلِّ شَيْءٍ صَغِيرٌ، فَيَقُولُ الشَّيْخُ لِلشَّابِّ: يَا بُنَيَّ، وَيُسَمِّي الْمَلِكُ رَعِيَّتَهُ الْأَبْنَاءَ. وَالْإِبْنُ يُقَالُ لِلذَّكَرِ، بِخِلَافِ الْوَلَدِ؛ فَإِنَّهُ يَقَعُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى⁽¹⁾.

وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ مُجْتَمَعَ الْجَاهِلِيَّةِ - الَّذِي خُوِطِبَ أَوَّلًا بِالْقُرْآنِ - كَانَ يُحِبُّ الذُّكُورَ وَيُبْذِ الْإِنَاثَ؛ لِاعْتِبَارَاتٍ مُخْتَلَةٍ تَخْصُّهُمْ؛ وَلِذَا فَإِنَّ الْإِفْتِدَاءَ بِالذُّكُورِ عَلَى نَفْسِهِمْ شَدِيدٌ، بَلْ لَا يَكَادُ يُتَصَوَّرُ. فَكَانَ فِي إِثَارِ التَّعْبِيرِ بِالْبَنِينَ دُونَ الْأَوْلَادِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ الذُّكُورِ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمَئِذٍ بَنِيهِ﴾ مراعاةً لتلك اللَّفْظَةِ النَّفْسِيَّةِ الدَّقِيقَةِ، تَكْشِفُ جَانِباً مِنْ عِجَازِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ الْكَرِيمِ.

(1) العسكري والجزائري، معجم الفروق اللغوية، ص: 12.

التَّضْحِيَّةُ
بِالْإِنَاثِ يَسِيرُ
عَلَى نَفُوسِ
الْكُفَّارِ، بخلافِ
الْبَنِينَ؛ فَإِنَّهُ لَا
يَكَادُ يُتَصَوَّرُ

بَيَانُ شِدَّةِ هَوْلِ
يَوْمِ الْقِيَامَةِ

لَا يُنْقِي الْمُجْرِمَ
عَلَى شَيْءٍ فِي
سَبِيلِ اسْتِنْقَاذِ
نَفْسِهِ عِنْدَ
التَّوَرُّطِ فِي
الْمُعْضَلَاتِ

فَصِيلَةُ الْإِنْسَانِ
أَقْرَبُأُوهُ الْأَدْنُونِ

وفي إضافة البنين إلى ضمير المفتدي في قوله: ﴿بَنِيهِ﴾ تنبيهه إلى شدة ارتباطه الروحي وتعلقه النفسي بهم، فإذا تمنى لو استطاع اقتداء نفسه بهم، وسهل عليه تقديمهم فداءً له - لو أمكنه -؛ كان ذلك دالاً على أن العذاب اللاحق به يومئذ خارج حدود التصور.

معنى (الواو):

(الواو) في قوله تعالى: ﴿بَنِيهِ ۖ وَصَلَاتِهِ ۖ وَآخِيهِ ۖ وَفَصِيلَتِهِ ۖ الَّتِي تُنْفِيهِ ۖ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ عاطفة؛ حيث تسهم في بيان الكناية عن شدة هول ذلك اليوم؛ إذ تجمع كل من سوى المجرم فداءً له في أمنيته، ولكن هيهات له ذلك؛ فاليوم يوم العدل، ولا تزر وازرة وزر أخرى.

لطيفة إيتار التعبير بالصاحبة على الزوجة:

لا يزال النظم الكريم يصطفي من بين البدائل اللغوية ما يدغم الكناية عن فظاعة أهوال ذلك اليوم، فيعبر عن الزوجة بالصاحبة؛ تأكيداً على أن طول العشرة وامتداد الصُحبة لم يعد له أهمية عند المجرم إزاء أهوال يومئذٍ، وذلك يكشف عن طبائع نفوس المجرمين، وأنهم لا يبقون على شيء في سبيل استنقاذ أنفسهم عند التورط في المعضلات.

دلالة التعبير بلفظ الفصيلة:

في التعبير بالفصيلة إجمالاً إيجازاً مبهر للآباء والأمهات والعمومة والخوولة والجوار وما إليها ممن فصل عنهم⁽¹⁾، ومن فصل عنهم أقرب إليه ممن عاشرهم عشرة مطلقاً. وهكذا يعمم النظم الكريم بعد أن خصص بنيه وصاحبته وأخاه. وأصل "الفصيلة: القطعة من أعضاء الجسد؛ وسميت عشيرة الرجل فصيلة؛ تشبيهاً لها بالبعض منه. وقال مالك: إن الفصيلة هي التي تربيته"⁽²⁾.

(1) الزمخشري، الكشاف: 4/ 610.

(2) الشوكاني، فتح القدير: 5/ 347.

وَمِنَ اللَّافِتِ أَنَّ الْمَجْرِمَ لَا يُبْدِي يَوْمَهُ تَمَنِّيَهُ اقْتِدَاءً نَفْسِهِ بِأَمِّهِ وَأَبِيهِ؛ وَذَلِكَ لِدُخُولِهِمَا فِي الْفَصِيلَةِ قَصْدًا لِلإِيجَازِ⁽¹⁾ عِنْدَ بَعْضِ الْعُلَمَاءِ. وَلِلدُّكْتُورِ فَاضِلِ السَّامِرَائِيِّ لَمَحَةٌ رَائِقَةٌ هُنَا؛ هِيَ أَنَّ الْمَجْرِمَ يَتَحَاشَى ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْاِقْتِدَاءَ يُغْضِبُ اللَّهَ تَعَالَى عَلَى الْمَجْرِمِ أَشَدَّ الْغَضَبِ؛ فَتَزَهُ الْمَجْرِمُ وَالِدَيْهِ عَنِ الْاِقْتِدَاءِ بِهِمَا، وَإِنْ كَانَا قَدْ طَوَّيَا فِي قَوْلِهِ: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾؛ لِأَنَّ أَبَاهُ وَأُمَّهُ لَيْسَا أَعَزَّ عَلَى نَفْسِهِ وَلَا أَقْرَبَ وَشِجَّةً إِلَيْهِ مِنْ بَنِيهِ، فَالْفَرْعُ غَالِبًا أَقْرَبُ مِنَ الْأَصْلِ.

نُكْتَةُ تَقْيِيدِ (فَصِيلَتِهِ) بِالْصِّفَةِ، وَعِلَّةُ التَّعْبِيرِ بِهَا اسْمًا مُوَصُولًا:

فِي تَقْيِيدِ (فَصِيلَتِهِ) بِالْصِّفَةِ ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ مَبَالِغَةٌ فِي وَصْفِ حَالِ الْاِقْتِدَاءِ بِكُلِّ غَالٍ وَنَفِيسٍ، وَأَنَّ الْمَجْرِمَ إِزَاءَ أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا يَدَّخِرُ شَيْئًا يَظُنُّ أَنَّهُ يَعُودُ عَلَيْهِ بِالنَّفْعِ إِلَّا وَتَمَنَّى تَقْدِيمَهُ فِدَاءً؛ اسْتِنْقَاذًا لِنَفْسِهِ مِنْ ذَلِكَ الْعَذَابِ، وَهَاهُوَ يُوَدُّ لَوْ تَمَكَّنَ مِنْ تَقْدِيمِ فَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ، فَمَاذَا بَقِيَ؟.

فَصِيلَةُ الرَّجُلِ
وَعَشِيرَتُهُ سَنَدُهُ
فِي الشَّدَائِدِ

وَالْتَّعْبِيرُ عَنْ صِفَةِ الْفَصِيلَةِ بِالاسْمِ الْمَوْصُولِ ﴿الَّتِي﴾ هُوَ الَّذِي هِيََا لِلنَّصِّ عَلَى جُمْلَةِ الصَّلَةِ وَإِيرَادِهِ فِعْلًا مُضَارِعًا ﴿تُؤْوِيهِ﴾؛ فَالْتَّعَرُّضُ لِهَذَا لَا يَتَأْتَى بِالاسْمِ الصَّرِيحِ، كَمَا لَوْ قِيلَ فِي غَيْرِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ: وَأَهْلُهُ الْأَقْرَبِينَ، أَوْ وَقَبِيلَتِهِ أَجْمَعِينَ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ سِوَى الْمَوْصُولِ.

وَفِي وَصْفِ (فَصِيلَتِهِ) بِالْمَوْصُولِ ﴿الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ إِمْلَاحٌ إِلَى مَا يَنْبَغِي لِلْمَرَّةِ إِزَاءَ أَهْلِهِ أَجْمَعِينَ، فَإِلَيْهِمْ مَأْوَاهُ فِي النَّوَازِلِ، وَلَدِيهِمْ أَسْبَابُ الدَّوْدِ عَنْهُ وَحِمَايَتُهُ فِي الْمُلَمَّاتِ، وَفِي الْمَثَلِ الْعَرَبِيِّ الدَّائِعُ: أَهْلَكَ لَا تَهْلِكُ؛ أَيُ: الزَّمِ أَهْلَكَ؛ تَتَحَصَّنْ وَتَحْتَمِي بِهِمْ وَلَا يَطَالُكَ الْهَلَاكُ.

دَلَالَةُ التَّعْبِيرِ بِفِعْلِ الْإِبْوَاءِ ﴿تُؤْوِيهِ﴾، وَنُكْتَةُ صَوْغِهِ مُضَارِعًا:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُؤْوِيهِ﴾ أَيُ: تَضُمُّهُ انْتِمَاءً إِلَيْهَا،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 161/ 29.

استهانة الكافر
بأهل نصرته
وجمايته مقابل
النّجاة بنفسه

أو ليأذا بها في النّوائب⁽¹⁾، ويأوي إليها في نسبه، أو يأوي إليها في خوفه⁽²⁾، وتنزّل فيه امرأته لقراءة ما بينها وبينه⁽³⁾؛ فهم منه بمكان. ففي فعل الإيواء كناية عن الحماية والنصرة، فهم فصيلته التي كانت تحميه وتذود عنه وتتصر له، فهاهو المجرم يودّ بإزاء ذلك لو يفتدي بهم، ممّا يدلّ على فظاعة الأحوال التي يباشرها جرّاء استهزائه بالدين الحقّ ورسوله الكريم ﷺ.

وصيغة المضارعة في جملة ﴿تُؤَيِّيه﴾ تستحضر الحال، كالوارد في قوله: ﴿وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ [فاطر: 9] أي: يودّ لو يفتدي بأمه - على تفسير (فصيلته) بها -، مع شدة تعلق نفسه بها إذ كانت تؤويه. فإيثار لفظ الفصيلة وفعل الإيواء هنا من إيجاز القرآن وإعجازه؛ ليشمل هذه المعاني⁽⁴⁾.

معنى (الواو) في قوله: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾:

(الواو) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ عاطفة، تكشف عن تعدّد الفدى العزيزة على المجرم، التي كانت له في الدنيا حصانة حين كان يهزأ ويتكلم بسؤاله عن العذاب. فتجمع (الواو) بين فصيلته على ما فيها من عموم الأقربين، وبين من في الأرض جميعاً على ما فيهم من عموم العقلاء الكائنين في محيطه.

علة التعبير بالموصل (من) دون (ما) في قوله: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾:

(من) في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ اسم موصول، وصلته: ﴿فِي الْأَرْضِ﴾، والمعنى: أنّ المجرم يودّ لو يفتدي نفسه يومئذ بمن هو كائن في الأرض من الخلق⁽⁵⁾. فالتعبير بـ (من) للتغليب⁽⁶⁾، فقد

(1) الزمخشري، الكشاف: 4 / 610.

(2) للاوردي، النكت والعيون: 6 / 93.

(3) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23 / 259.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29 / 161.

(5) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23 / 259.

(6) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9 / 31.

أحوال القيامة
تدفع المجرم إلى
تمني تعديد
الفدى بقصد
النّجاة، وليس
هو بناج

دلالة الموصول
على العموم
والاستغراق
بأخصر لفظ
وأوجزه

غَلَبَ العقلاءُ على غيرِهِم لَشَرَفِهِم. أو "مِمَّا يَعِزُّ عَلَيْهِ مِنْ أَخْلَاءٍ،
وقرابة، ونفائسِ الأموالِ ممَّا شَأْنُ النَّاسِ الشُّحُّ ببذله والرَّغبة في
استبقائه، على نحو قوله تعالى: ﴿فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ
ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ﴾ (آل عمران: 91) (1).

والاسمُ الموصولُ - كما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ - من
الألفاظِ الدَّالَّةِ على العموم؛ فالموصولُ هنا مَلَمَّ كلَّ ما نراه في الأرض
وكلَّ ما لا نراه، وكلَّ ما نَعْلَمُه وكلَّ ما لا نَعْلَمُه، وجُعِلَ ذلك كُلُّهُ في
لفظٍ يسيرٍ مِنْ حرفين (مَنْ)، ولا يُمَكِّنُ تعديدُ أسماءٍ ذلك، ولا
الإحاطة بها أصلاً.

مَعْنَى ﴿فِي﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾:

﴿فِي﴾ في قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ حرفٌ دالٌّ على
الظَّرْفِيَّةِ، وفيها دلالةٌ على تَمَنِّي الكافر لو يَفْتَدِي بِمَا على الأرض
جميعاً، وما في بَطْنِهَا مِنْ كنوزٍ. والمقصودُ ما فيها وَمَنْ فيها؛ إِذْ إِنَّ
(مَنْ) هنا للتَّغْلِيْبِ (2)، فتشملُ العقلاءَ وغيرَهُم، وما في الأرضِ مِنْ
كنوزٍ مِنَ الْعِظَمِ والكثرة والتَّنَوُّعِ ما لا يَعْلَمُه إِلَّا الله تعالى.

وقد أَوْثَرَ التَّقْيِيدُ بِالظَّرْفِيَّةِ ﴿فِي الْأَرْضِ﴾ على الاستعلاء (على
الأرض) في النِّظْمِ الكريم؛ حيثُ وَرَدَ ذِكْرُ الظَّرْفِيَّةِ في نحو مائةٍ
وسبعين موضعاً، وَلَمْ يُذَكَّرْ حرفُ الاستعلاء مَعَ الأرضِ صراحةً
(على الأرض) إِلَّا في أربعةِ مواضعٍ، ولها مقاماتُها الخاصَّةُ، الجليَّةُ
في سياقاتِها.

معنى (أَل) فِي ﴿الْأَرْضِ﴾:

(أَل) في ﴿الْأَرْضِ﴾ لتعريفِ العهدِ العلميِّ؛ أي: الأرض التي
عهدها المُجْرِمُ، وعاش عليها في الدُّنْيَا، وعرف مَنْ عَاشَ فيها،

تَمَنِّي المُجْرِمِ
افتدائه بِمَا على
الأرض وما في
بَطْنِهَا

كُلُّ ما في الأرضِ
مِنْ نَرَوَاتٍ
ومعادنٍ نَفِيسَةٍ
يُودُّ المُجْرِمُ لو
يُمْكِنُه بَذْلُهَا
فِدَاءً لِنَفْسِهِ

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 162 / 29.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 31 / 9.

وَعَرَفَ كَثِيرًا عَنْ ثَرَوَاتِهَا؛ مِنْ ذَهَبٍ، وَفِضَّةٍ، وَأَلْمَاسٍ، وَنَحْوِهَا مِنْ مَعَادِنٍ نَفِيسَةٍ شَتَّى.

فَالْمُجْرِمُ يَتَمَنَّى لَوْ يَمْلِكُ ذَلِكَ كُلَّهُ، فَيَبْذُلُهُ رَخِصًا فِي سَبِيلِ افْتِدَاءِ نَفْسِهِ مِنَ الْعَذَابِ، وَقَدْ كَانَ أَمْرُ نَجَاتِهِ أَيْسَرَ مِنْ ذَلِكَ لَوْ آمَنَ وَاسْتَقَامَ، فَقَدْ جَاءَهُ دَاعِي اللَّهِ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ﴾ [الفرقان: 57]، لَكِنَّ الْمَجْرِمَ رِكَبَ حِصَانٍ الْعِنَادِ، حَتَّى بَلَغَ بِهِ الْعَذَابُ ذَلِكَ الْمَبْلَغَ الشَّنِيعَ.

نُكْتَةُ التَّقْيِيدِ بِالتَّوَكُّيدِ ﴿جَمِيعًا﴾:

يُودُّ الْمُجْرِمُ
الْفِدَاءَ وَلَوْ
بِالثَّقَلَيْنِ جَمِيعًا

﴿جَمِيعًا﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ فِي مَوْضِعِ الْحَالِ، وَهُوَ فِي الْمَعْنَى تَوْكِيدٌ؛ وَهُوَ يَدْعُمُ الْكُنَايَةَ الْكُبْرَى الْكَامِنَةَ وَرَاءَ هَذَا التَّرْكِيبِ كُلِّهِ، وَهِيَ شِدَّةُ هَوْلِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَشِدَّةُ عَذَابِهِ عَلَى الْمَجْرِمِ؛ إِذْ يَزْهَدُ الْمُجْرِمُ فِي كُلِّ مَنْ كَانَ لَهُ بِهِ صَلَوةٌ وَفِي كُلِّ مَا كَانَ لَهُ عِنْدَهُ قِيمَةٌ، وَفِي كُلِّ مَنْ وَمَا لَمْ يَكُنْ، وَيَتَمَنَّى افْتِدَاءَ نَفْسِهِ مِنْ عَذَابِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ بِجَمِيعِهِمْ، وَهِيَ مِنْ أَبْلَغِ الْكُنَايَاتِ فِي هَذَا السِّيَاقِ.

وَالْمَقْصُودُ بـ ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾ أَي: "مِنِ الثَّقَلَيْنِ وَغَيْرِهِمْ، سِوَاءَ كَانَ فِيهِمْ صَدِيقٌ لَا صَبَرَ عَنْهُ وَلَا بُدَّ فِي كُلِّ حَالٍ مِنْهُ، أَوْ لَا. وَلَمَّا كَانَ رَبُّمَا خُصَّ ذَلِكَ بِغَيْرِهِ؛ قَالَ مُحَقِّقًا لِإِرَادَةِ الْحَقِيقَةِ فِي مَعْنَى (مَنْ): ﴿جَمِيعًا﴾" (1).

مَعْنَى ﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ يُنَجِّيه﴾:

يَأْسُ الْمُجْرِمُ فِي
الْآخِرَةِ مِنْ فِدَاءِ
نَفْسِهِ يُضَاعَفُ
الْحَسْرَةُ فِي قَلْبِهِ

﴿ثُمَّ﴾ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنَجِّيه﴾ دَالَّةٌ عَلَى التَّرَاخِي الرُّتْبِيِّ، فِغَايَةِ غَايَاتِ الْمُجْرِمِ النَّجَاةَ مِنَ الْعَذَابِ، وَلَا تَطْلُعَاتٍ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ مِنَ التَّضْحِيَةِ بِتِلْكَ الْفِدَى الثَّمِينَةِ الْعَزِيزَةِ. وَفِي ﴿ثُمَّ﴾ كَذَلِكَ "اسْتِبْعَادُ الْإِنْجَاءِ؛ أَي: يَتَمَنَّى الْمُجْرِمُ لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا تَحْتَ يَدِهِ وَبَذَلَهُمْ فِي فِدَاءِ نَفْسِهِ ثُمَّ يُنَجِّيه ذَلِكَ، وَلَكِنْ هِيَ هَاتِ

(1) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 397/20.

أَنْ تَكُونَ لَهُ نَجَاةٌ⁽¹⁾؛ مِمَّا يَكْشِفُ عَنْ عُمَقِ الْيَأْسِ فِي نَفْسِهِ، وَيُعَمِّقُ فِيهَا الْحَسْرَةَ وَالنَّدَامَةَ.

وَالْعَجَبُ كُلُّ الْعَجَبِ مِمَّنْ يَسْتَمِعُ إِلَى هَذَا الْبَيَانِ الْمُخِيفِ ثُمَّ لَا يَنْتَهِي عَنْ أَسْبَابِهِ مِنَ الْكُفْرِ بِالذِّينِ وَالِاسْتِهْزَاءِ بِعَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى.

دَلَالَةُ الْعُدُولِ عَنِ (الْفَاءِ) إِلَى «ثُمَّ» فِي قَوْلِهِ: «ثُمَّ يُنَجِّيه»:

فِي الْعُدُولِ عَنِ الْعَطْفِ بِ (الْفَاءِ) إِلَى الْعَطْفِ بِ «ثُمَّ» فِي قَوْلِهِ: «ثُمَّ يُنَجِّيه» إِحْيَاءٌ بِ "شِدَّةِ اهْتِمَامِ الْمُجْرِمِ بِالنَّجَاةِ بِأَيَّةٍ وَسِيلَةٍ"⁽²⁾، وَتَطْلُعِهِ إِلَى ذَلِكَ، وَتَرَاحِي الْيَأْسِ فِي نَفْسِهِ مِنْ حُصُولِهَا.

وَذَلِكَ أَنَّ «ثُمَّ» تَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْمُجْرِمَ يَتَمَلَّكُهُ الْيَأْسُ مِنَ النَّجَاةِ؛ إِذْ يَسْتَشْعِرُ تَوَالِي الْعُقَابِ الْحَوَائِلَ دُونَ تَحْقِيقِهَا لَهُ؛ وَأَنَّهُ لَوْ تَحَقَّقَتْ لَهُ وَاحِدَةٌ - وَذَلِكَ مُحَالٌ -؛ اسْتَشْكَلَتْ عَلَيْهِ الْآخَرَى.

وَالْعُقَبَةُ الْأُولَى هِيَ اسْتِحَالَةُ وَجُودِ الْفِدْيَةِ، وَلَوْ كَانَتْ بَنِيهِ وَصَاحِبَتَهُ وَأَخَاهُ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَذَلِكَ قَطْعًا لَا يَكُونُ، لَكُنَّهَا الْأُمَانِي تُخَالِطُ نَفْسَهُ الْمَازُومَةَ هُنَاكَ.

ثُمَّ عَلَى فَرَضِ حُصُولِهَا تَطَرُّأُ لَهُ الْعُقَبَةُ الثَّانِيَةُ؛ وَهِيَ قَبُولُ تِلْكَ الْفِدْيَةِ مِنْهُ؛ فَيَحْصُلُ عَلَى النَّجَاةِ، وَتِلْكَ الْعُقَبَةُ أَيْضًا مُجَرَّدُ فَرَضٍ مَبْنِيٍّ عَلَى آخَرَ، وَلَا تُسْتَفَادُ تِلْكَ الْإِشَارَةُ إِلَّا مِنْ سَبِيلِ «ثُمَّ»؛ لِذَلِكَ لَا تَصَحُّ (الْفَاءُ) مَكَانَهَا لِأَدَاءِ تِلْكَ الدَّقِيقَةِ الَّتِي عَبَّرَ عَنْهَا أَبُو السَّعُودِ بِقَوْلِهِ: "يُودُّ لَوْ يَفْتَدِي ثُمَّ لَوْ يُنَجِّيه الْإِفْتِدَاءُ"⁽³⁾.

بَيَانُ مَرْجِعِ الصَّمَاثِرِ فِي «يُنَجِّيه»:

فِي جُمْلَةِ «يُنَجِّيه» ضَمِيرَا الْفَاعِلِ وَالْمَفْعُولِ؛ أَمَّا الْفَاعِلُ فَيَرْجِعُ إِلَى الْفِدَاءِ الْمَفْهُومِ مِنْ جُمْلَةِ «يُودُّ الْمُجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ»

تَرَاحِي الْيَأْسِ
مِنَ النَّجَاةِ
يَتَمَلَّكُ نَفْسَ
الْمُجْرِمِ؛ وَذَلِكَ
لِتَوَارِدِ الْعُقَابِ
دُونَهَا

تَحْقِيقُ
التَّمَاثُلِ
لِلْأَسْلُوبِ
وَالِيقَظَةِ
لِلْمُتَلَقِّ

(1) مجمع البحوث، التفسير الوسيط: 10 / 1575.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 29 / 162.

(3) أبو السعود، إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: 9 / 31.

بِنْيِهِ، والمعنى: "ثُمَّ يُنَجِّيه ذلك الفداء"⁽¹⁾. وتلخيص هذا الفاعل في ضمير الفعلِ (يُنَجِّي) يُحقق للأسلوب التماسك، وللعقول المتلقية اليقظة إلى التقاطه من جملة تلك التفاصيل.

وأما ضميرُ المفعول في جملة **﴿يُنَجِّيه﴾**؛ فيعودُ إلى المُجرِّم نفسه؛ فإنه المعنيُّ بالنَّجاة، الوادُّ حُصولها.

دلالة التعبير بالإِنْجاء، ونُكْثَةُ صوغه مُضارِعًا في الفعل: **﴿يُنَجِّيه﴾**:

الإِنْجاءُ في جملة **﴿يُنَجِّيه﴾** يعني: سلامة المُجرِّم وخُلوصه من العذاب الذي سَقَطَ فيه هُنالك في الآخرة، فيقال: نَجَا الشَّخْصُ من الشَّرِّ، أي: سَلِمَ وَخَلَصَ مِنْ أَذَاهُ، كما قال تعالى: **﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا﴾** [يوسف: 45]⁽²⁾، فغايةُ المُجرِّم مجردُ السَّلامة، ولا مَطْمَحَ له وراءَ ذلك؛ ولا يقدِّرُ عذابَ الآخرة حقَّ تقديره إلَّا مَنْ عالجهُ.

أعلى غاية
وأعلاها
للمُجرمين في
الآخرة الخلوَصُ
مِنَ العذابِ
والسَّلامةِ مِنْهُ

ففي حديث آخر أهل النار خروجاً منها؛ يقول ﷺ: "آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ، فَهُوَ يَمْشِي مَرَّةً، وَيَكْبُو مَرَّةً، وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا التَّتَمَّتْ إِلَيْهَا، فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّاني مِنْكَ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ"⁽³⁾، والشَّاهدُ أَنَّ خروجه من النَّارِ عطيةٌ من الله تعالى غالية لا يرى فوقها عطيةً: "لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنَ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ"، فغايةُ غاياتِ المُجرِّم الخلوَصُ والسَّلامة من العذاب.

والمُضارعةُ في الفعل **﴿يُنَجِّيه﴾** تسهم في بيانِ حالِ المُجرِّم؛ إذ "يُودُّ لَوْ يَكُونُ لَهُ بِذَلِكَ الْفِدَاءُ نَجاةً تَتَجَدَّدُ لَهُ فِي وَقْتٍ مِنَ الْأَوْقَاتِ"⁽⁴⁾، ولكن هيهات!.

(1) الواحدي، التفسير الوسيط: 4 / 352.

(2) أحمد مختار، معجم اللغة العربية المعاصرة: (نحو).

(3) رواه مسلم في صحيحه، برقم: (187).

(4) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 20 / 397.

دلالة ذِكْرِ الْأَبْعَدِينَ فِي الْفِدَاءِ بَعْدَ الْأَقْرَبِينَ وَهُمْ يُغْنَوْنَ عَنْهُمْ:

فِي بَدْءِ النَّظْمِ الْكَرِيمِ بِذِكْرِ وَدِّ الْكَافِرِ الْاِفْتِدَاءِ بَيْنِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَأَخِيهِ وَفَصِيلَتِهِ الْأَقْرَبِينَ غَنَاءً وَكِفَايَةً عَنْ ذِكْرِ الْأَبْعَدِينَ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا، وَمَعَ ذَلِكَ ذِكْرَ الْأَبْعَدُونَ بَعْدَهُمْ؛ وَذَلِكَ "أَنَّهُ إِنَّمَا يُتَوَصَّلُ إِلَى فِدَاءِ أَهْلِ الْأَرْضِ إِذَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مَلَكٌ وَكَانُوا بِأَجْمَعِهِمْ لَهُ، وَإِذَا كَانُوا جَمِيعًا لَهُ مَلَكًا؛ كَانَتْ شَفَقَتُهُ عَلَى مَلِكِهِ وَأَوْلَادِهِ وَاحِدَةً أَوْ أَكْثَرَ، فَكَمَا يَضُنُّ بِيَذُلْ أَوْلَادِهِ وَأَنْ يَكُونُوا عَنْهُ فِدَاءً، فَكَذَلِكَ يَضُنُّ بِالْأَبَاعِدِ إِذَا كَانُوا جَمِيعًا مَلَكًا لَهُ؛ فَلِذَلِكَ اسْتَقَامَ أَنْ يَبْدَأَ بِذِكْرِ الْأَقْرَبِينَ قَبْلَ الْأَبْعَدِينَ؛ إِذْ كُلُّ ذَلِكَ يَسْتَوِي فِي التَّهْوِيلِ وَالتَّفْرِيعِ.

مَنْ وَدَّ الْفِدَاءَ
لِيَتَخَلَّصَ مِنَ
الْعَذَابِ؛ لَا يَعْزُ
عَلَيْهِ مَا قَدَى
وإن كَانَ مَلَأَ
الْأَرْضَ ذَهَبًا

وَجَائِزٌ أَنْ يَكُونَ ذِكْرُ الْأَقْرَبِينَ وَذِكْرُ أَهْلِ الْأَرْضِ لَيْسَ عَلَى جِهَةٍ الْأُولَى، وَلَكِنَّهُ ذِكْرُ الْآحَادِ أَوَّلًا، ثُمَّ ذِكْرُ الْجَمَاعَةِ، ثُمَّ ذِكْرُ جَمَاعَةِ الْجَمَاعَةِ؛ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُ لَا يَنْفَعُهُمُ الْفِدَاءُ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ، وَأَنَّ الَّذِينَ وَدَّوا الْفِدَاءَ لِيَتَخَلَّصُوا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ تَعَالَى لَا يَشْتَدُّ عَلَيْهِمْ مَا فَدَوْا وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ مَلَأَ الْأَرْضَ⁽¹⁾.

توجيه التشابه في الآية الكريمة:

لَمَّا كَانَ السِّيَاقُ هُنَا لِلْاِفْتِدَاءِ؛ بَدَأَ النَّظْمُ الْكَرِيمُ بِأَعَزِّهِمْ فِي ذَلِكَ، بِخِلَافِ مَا فِي سُورَةِ (عَبَسَ)؛ فَقَالَ هُنَا: ﴿بَيْنِيهِ﴾؛ أَي: لِشِدَّةِ مَا يَرَى. وَلَمَّا كَانَتْ هَذِهِ الْآيَةُ فِي الْفِدْيَةِ؛ قَدَّمَ الْأَلْصَقَ فَالْأَلْصَقَ، وَالْأَعْلَقَ فِي الْإِنْسِ فَالْأَعْلَقَ. بِخِلَافِ مَا فِي سُورَةِ عَبَسَ؛ فَإِنَّهَا فِي سِيَاقِ الْفِرَارِ وَالنُّفْرَةِ؛ فَقَدَّمَ الْأَبْعَدَ عَنْ ذَلِكَ فَالْأَبْعَدَ مِنْ جِهَةِ النَّفْعِ وَالْمَعْرَِّةِ⁽²⁾.

بلادة الكناية بِذِكْرِ فِرَارِ الْكَافِرِ مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا:

فِي ذِكْرِ فِرَارِ الْكَافِرِ مِنْ هَؤُلَاءِ جَمِيعًا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿بَيْنِيهِ﴾^(١١) وَصَحْبَتِهِ وَأَخِيهِ^(١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوِيهِ^(١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا

هَؤُلُ الْآخِرَةِ
لِلْكَافِرِ مِمَّا لَا
عَهْدَ لِأَخِي بِمَثَلِهِ

(1) اللاتريدي، تأويلات أهل السنة: 202/10.

(2) البقاعي، نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: 396/20.

"أَنَّهُ يَسْتَقْبِلُهُمْ فِي ذَلِكَ هَوْلٌ وَفَزَعٌ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِمِثْلِهِ عَهْدٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَا كَانَ خَطَرٌ بِبِالِهِمْ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ الْمَرْءَ لَا يَبْلُغُ بِهِ الْهَوْلَ فِي الدُّنْيَا مَبْلَغًا يُودُّ أَنْ يَفْتَدِيَ بِهِ بَنِيهِ وَصَاحِبَتَهُ، وَأَخِيهِ، وَأَقْرَبَائِهِ، وَجَمِيعَ مَنْ فِي الْأَرْضِ؛ فَيَكُونُ فِيهِ إِخْبَارٌ عَنْ شِدَّةِ هَوْلٍ ذَلِكَ الْيَوْمِ؛ لِيَحْمَلَ النَّاسُ عَلَى الْإِنَابَةِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى وَالْإِنْتِهَاءِ عَمَّا نَهَاهُمْ عَنْهُ"⁽¹⁾.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الحُبُّ والودُّ:

الحُبُّ - في حقِّ المخلوق - يكون فيما يوجبه ميلُ الطَّبَاعِ والحكمة جميعاً، والودُّ من جِهَةِ ميلِ الطَّبَاعِ فقط؛ أَلَا تَرَى أَنَّكَ تَقُولُ: أُحِبُّ فَلَانًا وَأَوْدُهُ، وَتَقُولُ: أُحِبُّ الصَّلَاةَ وَلَا تَقُولُ أَوْدُ الصَّلَاةِ؟ وَتَقُولُ أَوْدُ أَنْ ذَاكَ كَانَ لِي؛ إِذَا تَمَنَيْتَ وَدَادَهُ، وَأَوْدُ الرَّجُلُ وَدًّا وَمَوْدَّةً، وَالْوُدُّ والوديد، مثل الحُبِّ؛ وَهُوَ الْحَبِيبُ⁽²⁾.

وِيرِدُ الْوَدَّ بِمَعْنَى مُحَبَّةِ الشَّيْءِ وَتَمَنِّي كَوْنِهِ، وَمِنْ الْمَوْدَةِ الْمُقْتَضِيَةِ لِلتَّمَنِّي قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَدَّتْ طَّائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ﴾ [آل عمران: 69].

وَالْوَدَّ وَالْمَوْدَةَ أَعْمُ مِنَ الْحُبِّ وَالْمُحَبَّةِ، فَهُوَ يَعْنِي الْحُبَّ الْمَشُوبَ بِالْتَّمَنِّي، وَيُرِدُ بِمَعْنَى الصَّدَاقَةِ وَمَدِّ مَا يُقَوِّيْهَا وَيُبْقِيْهَا وَيُوسِّعُهَا، وَلِذَا اسْتَعْمَلَ النَّظْمُ الْقِرَائِي الْمَوْدَةَ دُونَ الْمُحَبَّةِ فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوْدَّةً وَرَحْمَةً﴾⁽³⁾ [الرَّؤْم: 21]

الْبُنُوَّةُ وَالْوِلَادَةُ:

لَفْظُ الْبُنُوَّةِ أَوْسَعُ مِنْ لَفْظِ الْوِلَادَةِ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ بِالْبُنُوَّةِ: الدَّعْوَةُ وَالنَّسَبُ، فَإِذَا نُسِبَتْ؛ فَقَدْ تُنْسَبُ إِلَى الْوَالِدِ وَغَيْرِ الْوَالِدِ؛ أَلَا تَرَى إِلَى

الودُّ أعمُّ معاني
مِنَ الحُبِّ

الْبُنُوَّةُ الدَّعْوَةُ،
وَالنَّسَبُ،
وَالْوِلَادَةُ النَّسَبُ
فَقَطْ

(1) للاتريدي، تأويلات أهل السنة: 10/ 202.

(2) العسكري، الفروق اللغوية، ص: 122.

(3) عبد الجبار فتحى زيدان، الفروق اللغوية في القرآن الكريم، ص: 457 - 458.

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَابْنُ السَّبِيلِ﴾ [البقرة: 177]، فَنُسِبَ إِلَى السَّبِيلِ وَلَيْسَ بِوَالِدِهِ، وَكَذَلِكَ قَوْلُهُمْ: ابْنُ آوَى، وَابْنُ عَرَسٍ، وَبَنَاتُ أَوْبَرٍ - لِلْكَمَاءَةِ -، وَبَنَاتُ نَعَشٍ - فِي النُّجُومِ.

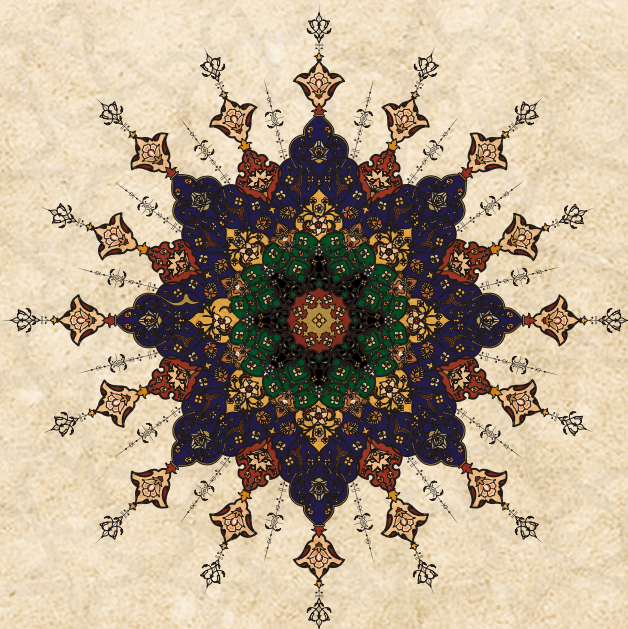
وَلَا يَحْسُنُ فِي شَيْءٍ مِنْ هَذَا لَفْظُ الْوَلَدِ، فَمِنْ هَذَا لَمْ يَزِدْ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى حُجَّةً لِمَنْ قَالَ مِنَ الصَّحَابَةِ: إِنَّ الْجَدَّ كَالْأَبِ، كَمَا أَنَّ ابْنَ الْإِبْنِ كَالْإِبْنِ؛ لِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿يَبْنِيْ عَادَمَ﴾ [الأعراف: 26]، وَ﴿يَبْنِيْ إِسْرَءِيلَ﴾ [البقرة: 40]، وَلِقَوْلِهِ: ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الحج: 78]؛ لِأَنَّ هَذَا نَسَبٌ وَتَعْرِيفٌ، وَلَوْ ذَكَرَ الْوِلَادَةَ؛ لَكَانَ لَهُمْ فِيهَا حُجَّةٌ وَمَتَعَلَّقٌ؛ لِمَا تَقَدَّمَ مِنَ الْمَقْصُودِ بِلَفْظِ الْوَلَدِ وَلَفْظِ الْإِبْنِ، وَفَرَقَ مَا بَيْنَهُمَا.

كَمَا أَنَّ الْوَلَدَ يَقَعُ عَلَى الذَّكَرِ وَالْأُنْثَى، وَالْوَاحِدَ وَالْجَمْعَ، بِخِلَافِ الْإِبْنِ؛ فَيَخْتَصُّ بِالذَّكَرِ الْوَاحِدِ⁽¹⁾.

(1) السهيلي، الفرائض وشرح آيات الوصية، ص: 37.



412	- [القلم: 37 - 38]	7	الجزء التاسع والعشرون
420	- [القلم: 39]		
431	- [القلم: 40]	9	سورة المُلْك
438	- [القلم: 41]		
450	- [القلم: 42 - 43]	10	- [الملك: 12]
471	- [القلم: 44 - 45]	16	- [الملك: 13]
489	- [القلم: 46 - 47]	27	- [الملك: 14]
503	- [القلم: 48 - 50]	35	- [الملك: 15]
525	- [القلم: 51 - 52]	47	- [الملك: 16 - 17]
		59	- [الملك: 18]
		64	- [الملك: 19]
543	سورة الحاقة	75	- [الملك: 20 - 21]
		92	- [الملك: 22]
552	- [الحاقة: 1 - 3]	102	- [الملك: 23 - 24]
566	- [الحاقة: 4 - 8]	115	- [الملك: 25 - 26]
604	- [الحاقة: 9 - 10]	124	- [الملك: 27]
619	- [الحاقة: 11 - 12]	133	- [الملك: 28]
630	- [الحاقة: 13 - 18]	141	- [الملك: 29]
651	- [الحاقة: 19 - 24]	149	- [الملك: 30]
669	- [الحاقة: 25 - 29]	155	سورة القَلَم
683	- [الحاقة: 30 - 32]		
691	- [الحاقة: 33 - 34]	164	- [القلم: 1 - 4]
696	- [الحاقة: 35 - 37]	195	- [القلم: 5 - 6]
703	- [الحاقة: 38 - 43]	206	- [القلم: 7]
719	- [الحاقة: 44 - 47]	220	- [القلم: 8 - 9]
731	- [الحاقة: 48 - 52]	233	- [القلم: 10 - 13]
		263	- [القلم: 14 - 15]
		276	- [القلم: 16]
743	سورة المعارج	285	- [القلم: 17 - 25]
		335	- [القلم: 26 - 32]
751	- [المعارج: 1 - 4]	376	- [القلم: 33]
777	- [المعارج: 5 - 10]	388	- [القلم: 34]
796	- [المعارج: 11 - 14]	396	- [القلم: 35 - 36]



عنوان الكتاب:

موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثالث والستون،
سورة الملّك من الآية 12 إلى سورة المَعارج الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة

*

التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
© حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م

*

الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366

م. ق. ت

التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثالث والستون، سورة الملّك من الآية 12 إلى سورة المَعارج الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغامي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة: منشورات القاسمي، 2026.

مج. 63، 822 صفحة؛ 24x17 سم.

ردمك : 978-9948-647-00-3

يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.

مج. 63 : المجلد الثالث والستون، سورة الملّك من الآية 12 إلى سورة المَعارج الآية 14.

1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-647-00-3

*

إذن طباعة رقم: MC-03-01-7111585 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة

*

الفئة العمرية : E

"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"

*

الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE

الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"